

المِفْطَرُ

جَزَّاءُ عَلَيْتَهُ مِنْ أَعْيَتْهُ زَرَاعَيْتَهُ

الجزء الرابع من المجلد الرابع والثانين

١٣٥٢ ذي المجة سنة

١٩٣٦ أبريل سنة

العلم والفلسفة

كان عهدُ وكانت المعارف الإنسانية قليلة التنويع . في عصر الأغريق القدرين ، كان حكماً مملاً لا ينفردُ بين الرياضة والمواليد والسيكولوجيا وأدب النفس فكانت ملائكة كبيرة منهم فلامنةً ومصلحين ورياضيين وطبعيين في آذى واحدٍ . بل وكانت ماسةً وجندواً ومهندسين وتجاراً كذلك ، وهذا بذلك على وحدة المعرفة في عصرٍ ثم بل على وحدة المعرفة والعمل . حتى التعليم في «الاكاديمية» و«الميسيوم» كان وفقاً لتقالييد الموروثة عن فيثاغوروس تعليماً عاماً يتناول المبادئ ، والأصول في الفالب دون التفصيلات . وهذا لا يعني أن بعض المفكرين في قيتك الدرستين حاولوا الانقطاع لنزع ولحد من فروع المعرفة والتوفير عليهـ . ولم تفصل العلوم بعضها عن بعض وتحبـرـ مباحثـهاـ إلاـ فيـ عـهـدـ مـدـرـسـةـ اـسـكـنـدـرـيـةـ وبـعـدهـاـ وكانـ منـ الطـبـيـعـيـ أنـ تكونـ المـعـرـفـةـ وـحدـةـ غـيرـ عـرـفـةـ ، لـمـ كـانـ الـعـلـومـ فيـ مـهـدـهاـ . بـدـ انـ مـوـقـعـ الـأـغـرـيقـ ثـمـ وـحدـةـ الـمـعـرـفـةـ ؛ يـعـدوـ هـذـهـ الـظـاهـرـةـ السـطـحـيـةـ . ذـلـكـ آنـ يـقـومـ مـثـلـاـ وـاضـحـاـ عـلـىـ الصـلـةـ الـوـقـيـعـةـ بـيـنـ اـرـقـاءـ الـرـياـضـةـ وـالـعـلـمـ مـنـ جـهـةـ وـالـفـلـسـفـةـ مـنـ جـهـةـ أـخـرىـ . وـقـيـ مـكـنـكـتـكـ آنـ تـتـبـيـنـ أـنـ هـذـهـ الـعـلـةـ خـلـالـ الـعـصـورـ الـتـيـ تـلـتـ عـصـرـ الـأـغـرـيقـ إـلـيـ قـرـبـ تـقوـسـ وـكـلـرـ وـنـيونـ . ثـمـ اـنـتـأـ نـجـمـ مـكـنـشـفـاتـ دـيـكارـتـ اـرـيـاضـيـ وـالـمـلـيـةـ أـسـاـ لـامـلـوـيـهـ الـفـلـسـفـيـ ، بـلـ آنـ نـظـرـتـ الـحـكـرـيـةـ Cosmological وـالـبـيـولـوـجـيـ اوـحـتـ إـلـىـ الـفـلـسـفـوـفـ سـيـنـوزـاـ بـرـهـانـاـ هـنـدـسـاـ الـرـاوـيـ الشـمـيرـ . ثـمـ اـنـتـأـ تـقـمـ فيـ فـلـسـفـةـ لـيـثـرـزـ عـلـىـ فـكـرـةـ «ـالـتـنـاهـيـ فـيـ الصـفـرـ»ـ فـتـجـدـهـاـ كـمـطـ العـقـدـ تـنـظمـ وـيـاضـتـهـ الـعـالـيـةـ (ـحـابـ الـحـامـ وـالـنـفـاـضـلـ)ـ وـنـظـرـيـةـ فـيـ الـمـادـةـ وـفـانـيـةـ النـفـيـةـ وـالـأـدـيـةـ وـفـقـهـ الـدـينـ)ـ وـكـانـ فـلـسـفـةـ كـانـتـ باـعـثـاـ عـلـىـ فـتـحـ الـهـوـةـ بـيـنـ الـعـلـمـ وـالـفـلـسـفـةـ بـيـنـ الـقـرـنـ الـتـاسـعـ عـشـرـ . فـاصـحـ الـعـلـمـ مـتـعلـلاـ

لونق اعمال بالعقل المجرد فلماً عليه . اما شروون الحياة الپورمية وما يلازمها من اقامة الاوزان الادبية فترك لاحكام المثل العملي والخبرة ، وهذا أحسن ظلاً ، من الريبة على مكانة المسائل الفلسفية من العلم . فعاتم للعلم ، القائم على العقل المجرد ، سلسلة من الاتسارات الباهرة قدمت مدرسة الوسيعين وهبطت مكانة الفلسفة . فتمهد السبيل جيداً ، لتسير الكون والحياة تسبيراً ميكانيكياً مادياً . و الساد ارأى بأن المقدمة متصلة بالمادة من حيث ان الشيء لا يكون حتىقيتاً الا اذا كان كلامادة ، كما تدركه الحواس ولو ادراكاً نظرياً كادر الضرر واما ماعدا ذلك ، فتعجّل في ظلم من الاشباح . وغداً حتماً على كل باحث عن الحقيقة ان يملأها الى اجزائها ويصفها بما تدرك به من المزيقات والدرر . ومن العجيب ان العادي في هذا التحليل قضى على « الحقيقة » كما تدركها هؤلاء ، المفكرون . أما وقد أصبحت المادة خليطاً من المكان والزمان والامواج ، فلا ساس الذي قام عليه علم القرن التاسع عشر قد انهار . أما وقد زالت الضرورة القاضية بأن حقيقة الشيء يجب ان تطبق على صفات الاشياء التي تدركها الحواس ، فليس ثمة حاجـل الآدـل ، دون حسان ، ما يوحـي به الاختبار الـبيـن او حـسـ الـحالـ ، في عـدـ المـتـائـقـ . وـكـذـلـكـ غـهـدـتـ الطـرـيقـ لـاـمـادـةـ النـظرـ في تـسـيرـ الـكـوـنـ تـسـيرـاً فـلـسـفـيـاًـ جـديـداًـ . وـكـانـ النـتـيـجـةـ الـأـوـلـ ، هـذـاـ الـأـنـجـاءـ الـجـديـدـ ، تـقـرـيبـ الشـفـقـ بـيـنـ الـعـالـمـ وـالـفـلـسـفـةـ . فـعـلـمـاءـ الـطـبـيـعـةـ اـخـذـواـ يـعـتـزـزـ عـنـ حـلـولـ لـشـكـلـاتـهـمـ اـخـاصـةـ ، فـيـ الـمـاـنـاطـقـ الـتـيـ وـرـاءـ عـلـمـ الـطـبـيـعـةـ كـاـكـاـ نـمـدـهـ . وـوـلـلـاـسـفـةـ فـيـ اـعـيـانـهـ عـابـتـ الـعـلـمـ هـذـهـ اـسـتـرـعـيـمـ اـسـالـيـبـ الـمـلـمـ وـتـأـجـيـبـ ، وـهـبـطـرـاـ بـحـثـ «ـمـاـوـرـاـوـ الـطـبـيـعـةـ»ـ إـلـىـ دـوـرـ الـاـمـتـحـانـ . ثـمـ انـ فـلـكـيـنـ وـطـبـعـيـنـ مـنـ مـقـامـ اـدـلـقـنـ وـجـيـزـ وـبـلـانـكـ وـوـاـيـشـتـيـنـ ، اـصـبـحـوـاـ لـاـ يـحـسـبـوـنـ طـلـمـ الـمـادـةـ ذـاـ كـيـانـ مـتـقـلـ ، عـنـ عـقـلـ . وـمـوـقـعـهـ هـذـاـ تـيـضـيـفـ مـوـقـفـ اـسـلـافـهـ فـيـ اوـاـخـرـ الـقـرـنـ الـلـاضـيـ ، اـذـ كـانـ اوـلـكـ يـحـسـبـوـنـ الـمـادـةـ وـحـدـهـ حـقـيـقـةـ ، وـكـلـ مـاـعـدـهـ شـبـحاـ منـ اـشـبـاحـ . بـلـ انـ هـذـاـ الـاقـلـابـ يـبـدوـ لـكـ اـبـثـ عـلـىـ الـجـبـ ، اـذـ تـعـاـمـ اـنـ الـمـادـةـ كـانـتـ فـيـ نـظـرـ الـاـسـلـافـ خـاصـةـ خـضـوعـاـعـيـاـ لـنـوـامـيـسـ الـمـيـكـانـيـكـةـ . وـلـكـنـهاـ فـيـ نـظـرـ الـمـاحـرـيـنـ مـتـفـقـةـ بـنـوـعـ منـ حـرـيـةـ الـأـرـادـةـ ، وـفـقـاـ لـمـقـنـعـيـاتـ الـتـيـ يـنـطـلـقـيـ عـلـيـهاـ مـبـدـأـ هـيـزـتـرـجـ فـيـ عـدـ التـبـتـ . وـيـعـلـقـ

الـفـلـسـفـةـ وـفـانـ الـكـمـيـاـنـ هـرـيـهـدـ وـرسـلـ ، بـهـنـهـ النـاحـيـةـ مـنـ صـفـاتـ الـمـادـةـ شـائـعاـ خـطـيرـاـ

وـمـنـ تـابـعـ هـذـاـ تـاـعـونـ فـيـ عـلـمـ الـحـيـاـ ، اـنـ الـحـيـاـ لـاـ يـعـكـنـ اـنـ تـكـرـونـ تـيـجـةـ لـافـعـالـ تـاـدـةـ الـجـامـدةـ سـارـةـ سـيـرـاـ اـمـيـ وـفـقـاـ لـنـوـامـيـسـ الـمـيـكـانـيـكـةـ . بـلـ هيـ شـيءـ اـسـاسـيـ مـبـدـعـ وـهـاـ قـصـدـهاـ اـخـاصـ . وـمـنـ هـذـاـ نـتـائـ فـلـسـفـةـ تـعـرـفـ بـفـلـسـفـةـ الـتـنـظـرـ الـمـبـدـعـ ، خـلـقـ الـحـيـاـ بـقـيـصـاـهـ ، اـشـيـاءـ جـديـدةـ خـلـقاـ مـتـصلـ الـحـلـقـاتـ . حـتـىـ الـدـنـيـنـ لـاـ يـسـمـونـ بـالـتـفـرـيقـ الـاـسـاسـيـ بـيـنـ الـمـادـةـ وـالـحـيـاـ ، يـسـدـونـ اـلـىـ فـلـسـفـةـ الـبـرـزـوـغـ (Emergence)ـ كـهـوـيـهـ وـالـكـسـنـدـرـ وـمـوـرـغـنـ اوـ الـفـلـسـفـةـ الـكـلـيـةـ Holismـ كـمـسـطـرـ وـاـنـدـادـهـ . فـالـتـاـعـونـ فـيـ عـلـمـ وـالـفـلـسـفـةـ آيـةـ الـحـيـاـ الـنـكـرـيـةـ فـيـ هـذـاـ الـعـصـرـ . وـلـاـ يـعـنـاـ الـآنـ اـنـ غـبـ اـحـدـهـ وـحـدـةـ قـائـمـ بـذـاتـهـ مـتـفـعـلـةـ عـنـ الـآخـرـ . بـلـ هـاـ عـضـوـانـ حـيـانـ فـيـ جـسـمـ حـيـ هـوـ جـسـمـ الـعـرـفـ الـاـسـاسـيـ